إشكالية التداخل والتقاطع بين مناهج ونظريات البحث الأدبي المعاصر

رؤية نقدية

أستاذ مشارك دكتور. جواهر بنت عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ

كلية الآداب/ جامعة الأميرة نوره بنت عبد الرحمن/ المملكة العربية السعودية

Interference and intersection between research methods In modern literary criticism

Critical vision

Associate Professor Dr. Jawahar bin Abdul Aziz bin Abdul Rahman Al - Sheikh

College of Arts\ Princess Norah Bint Abdul Rahman University\ Saudi Arabia

jaalshek@pnu.edu.sa

Abstract

This research aims at conceiving a critical vision to solve the problem of the overlap of the various literary research methods and its many contemporary theories, through a brief review of the most important of these theories and theories, the extent of their service to the creative text or the extent to which they correspond to our spiritual and intellectual values, For many of her ideas.

In order to illuminate the path of the rising Arab critic, especially the academic scholar, and help him overcome the foggy Western theories and directions that diverge his vision, and contribute to the confusion.

Especially that these approaches and theories went in two opposite directions: namely, the trend of the coordinate and the direction of the course, ie, study within the text only, or study through its historical, social and psychological;

As a result, critics have recently come out in favor of both approaches, through the principle of integrative approach, or systematic method of manipulation, in which the critic benefits from everything that helps to analyze literary creative text by integrating several approaches, theories and approaches, Text, and the curriculum is not an end in itself.

Keywords: overlap, curriculum, theories, criticism.

الملخص

يهدف هذا البحث إلى تصور رؤية نقدية لحل إشكالية تداخل مناهج البحث الأدبي المتعددة ونظرياته المعاصرة العديدة، وذلك من خلال استعراض موجز لأهم تلك المناهج والنظريات، ومدى خدمتها للنص الإبداعي من عدمه، وكذلك مدى تلاؤمها مع قيمنا الروحية والفكرية، وتناقضها فيما بينها، وتراجع بعضها عن العديد من أفكارها.

وذلك لإنارة درب الناقد العربي الصاعد المعاصر لاسيما الباحث الأكاديمي، ومساعدته على تجاوز ضبابية النظريات الغربية وتوجهاتها التي تغاير رؤيته، وتساهم في حيرته.

خصوصا أن تلك المناهج والنظريات سارت في اتجاهين متعارضين: وهما الاتجاه النسقي، والاتجاه المساقي، أي: إما دراسة داخل النص فحسب، أو دراسته من خلال محيطه التاريخي والاجتماعي والنفسي؛ وكان لكل اتجاه مبرراته التي تمسك بها وما يزال كذلك.

ونتيجة لهذا ظهر مؤخرا من النقاد من يؤيد كلا الاتجاهين معا، وذلك من خلال مبدأ المنهج التكاملي، أو طريقة التضايف المنهجي؛ الذي يستفيد الناقد فيه من كل ما يساعد على تحليل النص الإبداعي الأدبي، وذلك عبر دمج عدة مناهج ونظريات ومناهج، لأن الهدف هو خدمة النص، وليس المنهج هدفا بحد ذاته.

وخلصت في ختام البحث إلى أنه ليس بمستطاع (منهج نقدي واحد) أن يستوعب (الظاهرة الأدبية كلّها) سواء أكان ذلك المنهج النقدي قائما على معطيات العلم، أم غيرها من المعطيات التي تبحث في أغوار الظاهرة الأدبية شعرية كانت أم نثرية.

لاسيما أن كثيرا من المناهج النقدية المعاصرة وقعت في العجز النقدي للظاهرة الأدبية، وهذا إما للنوعية الخاصة للنص الإبداعي، أو لعدم قدرة النظرية النقدية على تفكيك شفرات النص، أو عدم مناسبة المنهج النقدي له أثناء عملية التحليل، فليست إذن كل منهجية قدوة تحتذى من قبل الناقد.

الكلمات المفتاحية: تداخل، مناهج، نظريات، نقد.

المقدمة

يلحظ متتبع الدراسات النقدية الحديثة ظهور زخم هائل من المناهج والنظريات النقدية الغربية، وقد تعددت غاياتها، وتخالفت توجهاتها، وتداخلت مفاهيمها، وتقاطعت أهدافها رغم اختلاف مسمياتها، حتى وقف الباحث ـ خصوصا الصاعد ـ موقف الحيرة والشتات لاسيما وقد فرضت عليه نتيجة تمازج الثقافات المعاصرة وانتشارها في واقعنا المعاصر.

لذا يهدف هذا البحث إلى تقديم رؤية نقدية مبسطة للدارس الأكاديمي من خلال استعراض أهم تلك النظريات والمناهج وتوضيح مفاهيمها بإيجاز وتيسير، ومدى العلاقات بينها من تشابه أو تضاد، ومبررات كل منها في ذلك المسار ؛ ومن ثمّ كيفية الاختيار والترجيح والتوفيق فيما بينها من خلال اختيار منهج متكامل يستطيع إعانة الباحث والباحثة على الإفادة والاستفادة، **وتوسيع دائرة معارفه بالاطلاع** على مناهج ونظريات متعددة، ومن ثمّ حسن الاختيار والقدرة على الجمع بين النقد النسقي والنقد المساقي. من خلال الجمع بين المثاقفة والحفاظ على الهوية الفكرية.

ومنهج هذا البحث: هو منهج استقرائي للتوجهات النقدية، واستنتاجي للخروج برؤية نقدية شاملة، لعلها تسهم في إضاءة للناقد الصاعد أثناء دراسته وتحليله للنصوص الإبداعية من شعرية ونثرية.

أما خطة البحث: فتتضمن (مقدمة) في بداية الموضوع. ثم يهتم البحث بدراسة المتطلبات الآتية: . المطلب الأول: ماهية المنهج، وإشكاليته. . المطلب الثاني: اتجاهات المناهج والنظريات النقدية. . المطلب الثالث: مبررات كل اتجاه منهجي. . المطلب الرابع: تأثير المناهج المعاصرة على توجه النقد العربي والإسلامي. . المطلب الخامس: الدعوة لمنهج نقدي تكاملي. . المطلب السادس: موقفنا النقدي من المناهج المتعددة. . خاتمة البحث: وتشمل نتائجه التي توصل إليها، وتوصياته. . ثم إلحاق البحث: بثبت (المراجع والدراسات) التي أفادت منها هذه الدراسة.

التداخل والتقاطع بين مناهج البحث

في النقد الأدبي المعاصر

المطلب الأول: ماهية المنهج وإشكاليته: .

كثرت أمام الباحث المعاصر المناهج النقدية الحديثة والنظريات الغربية المعاصرة، وتعددت غاياتها، وتخالفت مسمياتها، وتداخلت مفاهيمها؛ لذا لابد للقارئ أو الناقد الصاعد من منهج ميسّر. لأن قضية تعدد المناهج النقدية تعدّ من القضايا الشائكة التي كانت وما تزال تحظى باهتمام الكثير من أهل الدراية في مجال البحث. وهو اهتمام يعبر عن مدى القيمة الحقيقية المتزايدة التي أصبحت تعنى بها هذه القضية في مجال البحث العلمي بمختلف جوانبه ومستوياته، ولعل هذا ما يفسر بلا شك العدد الهائل من الدراسات والأطروحات التي أعدت في سبيل الوقوف عند جوهر القضية، لكن البعض قد يزيدها غموضا[١]. وتكمن أهمية المنهج بوصفه إطارا علميا يساعد على كشف جماليات النصوص وفهم مكوناتها وأبعادها الدلالية؛ بأنه طريقة في البحث توصلنا إلى نتائج مضمونة أو شبه مضمونة في أقصر وقت ممكن، كما أنه وسيلة تحصّن الباحث من أن يتيه في دروب ملتوية من التفكير النظري[٢].

١ انظر: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر – مقاربة حوارية في الأصول ٢ المعرفية، عبد الغني بارة، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٥م، د.ط، ص ١٣٥.

٢ انظر: مقال المناهج النقدية المعاصرة، حلام الجيلالي، صحيفة اليوم، ٣مايو٢٠٠٤م، العدد١١٢٨٠

فالمنهج بهذه الوجهة هو المفتاح الإجرائي الذي يساعدنا على كشف بواطن النصوص وحقائقها، لأنه ليس مجرد أداة منهجية فحسب، وإنما يختزل رؤية شاملة شارك في تفعيلها مجموعة الخلفيات الثقافية وهي التي أدت إلى ظهوره، ومن ثمّ فهو يساعدنا على رصد أبعاد النص الإبداعية[١].

فإذا كان (المنهج في تعريفه المتداول) يتمثل في مجموعة من المفاهيم والتصورات المتصلة والأدوات والخطوات الإجرائية التي تفضي إلى نتيجة ما؛ فإنّ (الإشكالية) تظهر عند صعوبة ترتيبها وتنسيقها بالشكل الّذي يجعلها تؤدّي إلى النتيجة المنشودة. وبما أن النّص الإبداعي في واقع الأمر مجموعة من العناصر اللّغوية متصلة بعضها ببعض؛ فقد أضحى التعامل مع هذه النصوص أشد تعقيدا وتداخلا لكونها تتميّز عن الظواهر والأنساق الثقافية والمعرفية الأخرى؛ مما جعل العديد من النقاد يتساءلون: هل من منهج واضح لفهم النّص ونقده؟

لذا تردد في عالم النقد الحديث لفظ (إشكالية) الذي يختلف في مفهومه عن لفظ مشكلة التي تتميز بأنها يمكن الوصول إلى حل لها بطريقة أو أخرى من خلال تقدم البحث؛ على العكس من الإشكالية التي لا تتوافر إمكانية حلها منفردة ولا تقبل الحل من الناحية النظرية إلا في إطار حل عام يشملها من جميع النواحي. وانطلاقا من هذا المفهوم للفظ الإشكالية فإن النقد العربي الحديث يعيش حالة عدم استقرار بسبب التهافت على النظريات والمناهج الغربية المعاصرة دون إيجاد إطار منهجي عملي عام يشمل جميع نواحيها؛ لأن عرضها منفردة يجعل التناول مبتورا معزولا عن سياقه العام؛ ومن ثمّ لا يفضي إلى رؤية صحيحة ومتكاملة تبلور حقيقة المنهج وتتيح القدرة على حل إشكاليته. ولما كان النقد الأدبي فرعا من فروع العلوم الإنسانية، فإن البحث في المصطلح النقدي ظلّ محطة إجماع لا غنى له عنه في مجال لا غنى له عنه، لأن كشف أسرار الآليات المفهومية مرتبط بكشف أسرار الآليات اللغوية المتحكمة بكل ذلك. وظلّ أيضا محطة إجماع في أنه من الحقول التي يقتحمها عالم اللغة، وذلك لأنه أولا من مجالات البحث في صيغ الكلام وجداول الألفاظ، وهو جزء من الدراسة المعجمية، وثانيا لأن عالم اللسانيات يسلّم بأن استكشاف خصائص الظاهرة اللغوية لا يكتمل إلاّ بفحص تجلياتها في الخطاب الأدبي: الإبداعي منه والنقدي، فيُسَخِّر عندئذ خبرته اللغوية ليقدم للنقاد ما تيسر له من إضاءات[٢]. ولكن من الضروري أن نفرّق تفريقا واضحا بين النقد الأدبي ونظريات النقد الأدبي؛ فالنقد الأدبي هو فن النظر في النصوص الأدبية المفردة وإصدار الحكم عليها، أما نظرية النقد فهي لا تحفل بالأعمال المفردة، إلا من حيث هي توضح اتجاها من الاتجاهات النقدية، وإنما تحفل بالاتجاهات والمبادئ التي تحكم مواقف النقاد من الأعمال الأدبية المفردة، ونظرا لأن هذه المبادئ تختلف من منظّر لآخر، فإننا نلحظ بأن الفرق في ذلك هو درجة التركيز الذي تقوم عليه النظرية النقدية، سواء أكان المرسل (المؤلف)، أم الرسالة (النص الأدبي)، أم المتلقي (القارئ)[٣].

المطلب الثاني: اتجاهات المناهج والنظريات النقدية الحديثة:.

من تلك المفاهيم المتعددة المتقاطعة السابقة برزت (الإشكالية في الصراع) الذي لا يزال ممتدا حتى الآن بين (اتجاهين نقديين): يرى (الاتجاه الأوّل) أن النّص الأدبي علّة لمعلول سابق فينبغي الكشف عن دلالاته بربطه (بسياقه الخارجي)، ويدخل في هذا المجال المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي والمنهج النفسي والأسطوري. بينما يحاول (الاتجاه الثّاني) أن يدرس النّص الأدبي انطلاقا من(العلاقات الداخلية) التي تحكمه كالشكلانية، والبنيوية، والتفكيكية، والسيميائية، والأسلوبية، والتداولية[٤]. ومع ذلك فقد أضحى من هؤلاء من يطمح إلى (الجمع بين الاتجاهين): وهو دراسة داخل وخارج النّص معا، (كالبنيوية التكوينية). مما يدل على مراجعة أصحاب الشكل لمنهجهم بين الفينة والأخرى من أجل تعديل رؤاهم النقدية[٥].

١ انظر: تجليات المنهج اللغوي الجمالي عند مصطفى ناصف، نصيرة مصابحية، موقع ديوان العرب.
٢ انظر: المصطلح النقدي، عبد السلام المسدي، مؤسسة بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٤، ص٥
٣ انظر:، نظرية النقد الأدبي الحديث، د. يوسف نور عوض، ط١، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٤ه،، ص٦
٤ انظر: النقد الأدبي الحديث بداياته وتطوراته، أ.د.حلمي القاعود، ص٢٧٦
٥ انظر: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، لوسيان قولدمان، ط١، ترجمة أحمد سبيلا، ط١، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، د.ت.

إذن يمكننا القول: إن تلك المناهج النقدية تسير في اتجاهين: **(الاتجاه الأول)**: اتجاه (سياقي) حيث تدرس النصوص الأدبية في ظروف نشأتها (والسياقات الخارجية لها)، والتأثيرات التي يتوقع للنص أن يؤثر فيما يحيط به، ويمكن أن يشمل هذا كل الدراسات النقدية التي لا تجعل النص الأدبي وحده مدار اهتمامها، أي أنها تتوسل بوسائل خارجية ليست من داخل النص نفسه، وذلك مثل:

١. المنهج التاريخي: حيث الاهتمام بالسياقات الزمنية للنصوص ومنتجيها بعيدًا عن الأحكام والمعايير التي ارتضاها الكلاسيكيون. ومؤثراته الثلاثة هي: الجنس، البيئة، والعصر.

٢. المنهج الاجتماعي: حيث يتماهى وما طرحته الفلسفة التي ربطت بين الأنواع الأدبية والمجتمعات، وكانت الواقعية إفرازًا بينًا فيه، كما أن (الماركسية الشيوعية) تُداخِل فيما بين المنهجين التاريخي والاجتماعي!

٣. المنهج النفسي: وفيه الاهتمام بشخصية الأدباء ودوافع الإبداع؛ وهو متأثر بآراء فرويد النفسية (بأن الأدب تعبير مقنّع يحقق رغبات مكبوتة قياسًا على الأحلام).. وهذا يعني أن النقد يعنى بتفسير الأدب وليس الحكم عليه![١]

أما **(الاتجاه الثاني)** في مناهج النقد المعاصر: فهو الاتجاه (النصي) حيث ينصبّ النقد هنا على دراسة النص بذاته، ويسعى إلى الكشف عن العلاقات التي تتحكم به من غير أن تعير أهمية كبيرة للسياقات الخارجية، ومن أهم هذه المناهج النصية:

١. المنهج الشكلاني: أسسته في بدايات القرن العشرين الميلادي حلقة موسكو اللغوية، حيث ترى إن هدف علم الأدب ليس هو الأدب في عموميته وإنما (أدبيته)، أي تلك العناصر المحددة التي تجعل منه عملا أدبيًا.[٢]

٢. المنهج الأسلوبي: وقد برز في أمريكا، حيث كان الاهتمام بالنص الشعري من غير أي سياق خارجي، وتناول بمثابرة مسألة دراسة القصيدة واستيعاب (شكلها الفني).[٣]

٣. المنهج البنائي: يرى أن التعريف الأول للبنائية يعتمد على مقابلتها بالجزئية (الذرية) التي تعزل العناصر، وتعتبر تجمعها مجرد تراكب وتراكم، فالبنائية تتمثل في البحث عن العلاقات التي تعطي للعناصر المتحدة قيمة وضعها في (مجموع منتظم).[٤]

٤. ويتفرع من الاتجاه النصي (المنهج التفكيكي): وهو بعكس البنائي، حيث يقوض أولا البناء النصي، ثم ينظر في المركّبات من جديد لإعادة التشكيل والبناء.[٥]

إذن فمجمل القول: أن المنهج النقدي له اتجاهان سائدان: سياقي ونصي. وفي رأيي أن كلا الاتجاهين متممين لبعضهما، فليس هناك ضرورة للبقاء في خانة واحدة، فعلى الناقد أن يكتب كما يحس لا كما يتطلبه منهج . أيًا كان . بل يكتب كما تمليه عليه رسالة الكتابة، إذ لا بدّ للنقد من رسالة، ولا بد من طرح أسئلة: لماذا أنقد ؟ ومتى أنقد ؟ وكيف أنقد؟ ولأي شيء أهدف؟ وإلا فإن الناقد – من غير رسالة – إنما يهذي أو يعبث أو يتسلى، أو على الأقل يملأ صفحات "تجهد الأذهان" بجداول وأشكال وطلاسم يعسر على القارئ أو الدارس استيعابها![٦]

المطلب الثالث: مبررات المناهج والنظريات النقدية المختلفة: .

ورغم كل ما ذكر فإن لكل منهج مبرراته؛ ذلك أنّ النّص متحرك مفتوح يؤثر ويتأثر، وله تفاعلاته الذاتية والموضوعية وهو أداة فنية تطبيقية، والإنسان كائن تاريخي زمني لا تزامني، وهو بهذا المعنى يسهم من خلال الأدب وغيره في تشكيل العالم وتفسيره وفق الشرط التاريخي والقوانين الاجتماعية التي تتحكّم بصيرورة العالم، فالنص متغيّر وكذا الإنسان بل والعالم.[٧]

---

١ انظر: النقد الأدبي الحديث، مقاييسه واتجاهاته وقضاياه ومذاهبه، حسن درويش، ط٢، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، م١٩٩١م، ص٨٦، ٩٨

٢ انظر: نظرة النقد الأدبي الحديث، د. يوسف عوض، ص١٥

٣ انظر المصدر السابق، ص١٨

٤ انظر المصدر السابق، ص٢٢

٥ انظر المصدر السابق، ص٤٨

٦ انظر: مناهج تحليل النصوص الأدبية، لفتحي خشايمة، موقع جامعة ديالي، كلية التربية الأساسية.

٧ انظر: من إشكاليات النقد العربي المعاصر، د.شكري عزيز ماضي،ط١،بيروت: المؤسسة العربية، ١٩٩٧م، ص١٧.

ويرى أصحاب هذا التوجه أن من واجب المبدع أن يرصد هذا الواقع رصدا آليا، ذلك على أساس أنّ الكتابة الأدبية ليست في واقعها إلا امتدادا للمجتمع الذي تكتب عنه، وتكتب فيه معا، كما أنها نتيجة لذلك ليست إلاّ انعكاسا أمينا لكلّ الآمال والآلام الموجودة لدى النّاس في ذلك المجتمع[١].

لكننا في الواقع نرى أن التركيز على هذا الموقف من أصحاب تلك الرؤية الخارجية: يجعل العلاقة بين النصّ والواقع مجرد علاقة انعكاس وبذلك تلغى إبداعية النصّ وتحيله من إنتاج فنّي متميّز: إلى ظاهرة اجتماعية تخضع لقوانين المجتمع مثل كلّ الظواهر الاجتماعية التي لها طابع مادّي أو نفعي آنيّ ؛ في حين أن الفنّ لا يعدّ انعكاسا سلبيا، بل هو إسهام في التعرّف على الواقع وأداة شحنه أو سلاح تغييره... لأنّ الواقع يبدو في الفن أكثر غنى من حقيقته، فهناك إذن علاقة ألفة بين الواقع والفنّ، علاقة جمالية تصبح فيها وظيفة الفنّ استدراكا للنّقص الماثل في الواقع وإعادة للعلاقات التي تحكمه في قالب فني جمالي[٢].

هذه الملحوظات النقدية تأتي لتؤكّد أنّ من مهام النّقد الأدبي بيان مدى التلاحم والانسجام بين (العلاقات الداخلية) للنّص أي القوانين الخاصة التي تحكم الظاهرة الأدبية وعلاقتها (بإطارها الخارجي) أي القوانين العامة التي تحكمها، وهي أمور تفضي بالضرورة إلى رؤية الظاهرة الأدبية على أنّها (وثيقة تاريخية أو نفسية أو مجموعة مقالات سياسية) أو النظر إليها على أنّها (وحدة فنّية مستقلّة)، وبهذا فإنّ النّص لا يحقق وجوده الفعلي إلاّ إذا وضع في إطاره المرجعي مع المراعاة التامة على أنه (كلّ متكامل)، بحيث لا يمكن الفصل بين شكله ومضمونه.

أما أصحاب الاتجاه الداخلي: فيخلصون إلى أنّ النّص الأدبي "شكل مستقل، بل هو عالم قائم بذاته، ليست له علاقة مع ما هو خارج عنه وعن النسق الذي يدخل فيه، ومن أنّ دلالة الأشكال هي من النوع الوظيفي فقط ! معنى هذا أنّ الأعمال الأدبية في نظر هؤلاء تكتسب دلالاتها من أشكالها في حدّ ذاتها ومن أنظمتها الداخلية".[٣] ولهذا فهم أي ـ أصحاب الداخل النصّي ـ ينظرون إلى النصّ الأدبي على أنه ظاهرة لغوية بالدرجة الأولى ويرفضون بذلك كل المناهج النقدية السياقية كالمنهج النفسي والتاريخي والاجتماعي! والرأي عندهم أنه لا يمكن تفسير النص الأدبي اعتمادا على نفسية الكاتب وسيرته أو سيرة عصره. فمهمّة الناقد هي ولوج النّص والتركيز على قوانينه الداخلية وبنيته العميقة فالنصّ ليس أكثر من مجموعة إمكانات لغوية تركّزت بطريقة خاصة في الاعتماد على مجموعة من الأحكام اللغوية البنيوية الرفيعة؛ فالأدب فن والفن وهم وخيال.[٤] بل لا يتعدى أن يكون مجموعة من الجمل التي تخضع للوصف الصوتي والتركيبي والدلالي فحسب! وممثلي هذا الاتجاه يرون (أن الأدب بنية لغوية مغلقة)، وأن العمل الأدبي آلية لغوية مفرغة من كلّ محتوى اجتماعي أو حضاري أو جمالي؟! أي أن النصّ الأدبي جهاز لغوي بالدّرجة الأولى مغلق على ذاته التي هي (البنية الداخلية للنصّ) ومعزول عن أيّ سياق اجتماعي أو تاريخي![٥] فإذا كانت هناك جدوى من استعارة مفهوم البنية في (النقد الأدبي) فهي تتوقف على إدراك هذه الحقيقة: وهي أنه ليست كل الأبنية التي يمكن اكتشافها في العمل الأدبي مناسبة، أي ذات (وظيفة فنية وجمالية) في الأدب؛ فالبنية الماثلة في (الرواية) مثلا يمكن أن تشير إلى شيء في عملية الإبداع، أو سيرة المؤلف الذاتية، أو تضيف إلينا معلومات عن قصده أو ما كان يشغله وقد تكون هناك بنية أخرى ذات وظيفة تاريخية أو اجتماعية أو نفسية، أو متصلة بتاريخ الأدب والثقافة.

وكذلك نلاحظ أن البنيويين والشكلانيين يرفضون المرجعية التاريخية جملة وتفصيلا، ويرون أن النصّ بنية ثابتة مغلقة تستوحي حركتها من داخلها دون الاكتراث بما هو خارج النص فالحركة التاريخية التي يريدون هي الحركة التي الزمن فيها يظل زمن الأدب ذاته فحسب!

١ انظر: مقدمة في نظرية الأدب، د.عبدالمنعم تليمة، ط٢، لبنان، دار العودة، ١٩٧٩م، ص٢١٠.
٢ انظر: في نظرية النقد، د.عبد الملك مرتاض، د.ط، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، ص١٣٢.
٣ من إشكاليات النقد العربي المعاصر، شكري عزيز ماضي، ص٢٨.
٤ انظر: النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوره، د. حلمي قاعود، ص٢٧٧.
٥ انظر: فضاء المتخيل -مقاربات في الرواية-، حسين خمري، د.ط، الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠٢م، ص٦٣.

ولكن في هذا المفترق: يفاجئنا رأي أصحاب البنيوية التكوينية بفكرهم النقدي الذي يحاول أن يقف موقفا وسطا بين الاتجاهين، "ففسّروا النّص الأدبي انطلاقا من علاقاته الداخلية والتي تحيل إلى الجوانب الخارجية التي تحيط به"[١]. والمعنى الذي يتضح لنا هنا: أن تلك النظريات والمناهج الغربية تناقض بعضها وتتراجع عن بعض آرائها بعد أن ترى مناقضتها للواقع التطبيقي؛ بسبب تنوع مصادرها من مدارس غربية (أنجلو أمريكية) إلى مدرسة روسية تستمد بعض مفاهيمها النّظرية من (الماركسية الشيوعية)! فنخلص من خلال هذا العرض للمنهجين إلى أن: "العلاقة بين الشكل والمضمون علاقة متشابكة، وأن النصّ يوجد هويته بواسطة شفرته (أسلوبه)، ولكن هذه الهوية ليس لها جدوى إلا بوجود السياق، لأنه ضروري لتحديد الهوية، كما أن السياق لا يكون إلا بوجود تجمع على مرّ الزمن لينبثق منها السياق الذي يعني اعتماد السياق والشفرة على بعضهما لتحقيق وجودهما"[٢].

المطلب الرابع: تأثير المناهج الغربية على توجه النقد العربي والإسلامي: .

لعل ما ذكر آنفا أهم التطورات المرحلية التي عرفها النقد العربي المعاصر، كما أنها أيضا أهم المناهج النقدية التي استند إليها النقاد في تحليل النصوص الإبداعية وتقويمها ومدارستها نظريا وتطبيقيا. ويلاحظ كذلك أن هذه المناهج النقدية العربية ولاسيما الحديثة والمعاصرة كانت نتاج **(المثاقفة)** والاحتكاك مع الغرب والاطلاع على فكر الآخر عن طريق التلمذة والترجمة. وقد ساهم هذا الحوار الثقافي على مستوى الممارسة النقدية في ظهور إشكالية الأصالة والمعاصرة أو ثنائية التجريب والتأصيل في النقد العربي، لذا فقد ظهر اتجاه يدافع عن الحداثة النقدية وذلك بالدعوة إلى ضرورة الاستفادة من كل ما هو مستجد في الساحة النقدية الغربية، واتجاه آخر يدعو إلى تأصيل النقد العربي وعدم التسرع في الحكم سلبا على تراثنا العربي القديم، لكن هناك من كان موقفه وسطا يدافع عن التراث ويوفق بين أدواته وآليات النقد الغربي عن طريق المثاقفة. وهو النهج الذي استقر عليه النقد الإسلامي المعاصر في مجمله لاسيما إبان الآونة الأخيرة[٣].

ولم نجد في النظريات الغربية المتعددة والاتجاهات المختلفة التي تعاقبت على الأدب العربي تلك النظرية النقدية التي تفي بحاجة هذا الأدب وتقنع في درسه وتاريخه. فقد كانت هذه النظريات جميعاً، المفترضة منها والمطبقة سواء في اللفت إلى نحو من أنحاء الدراسة والقصور عما عداه، والنظر إلى الأدب من جانب وإهمال الجوانب الأخرى وبدت كلها وعليها هذه الجوانب من النقص[٤]. وكان من نتائجها أيضاً ما وقع من الفوضى والاضطراب في المفاهيم النقدية واختلاط المصطلحات.

لهذا يحق لنا أن نتساءل: إلى أي مدى تصلح المناهج النقدية الحديثة التي هي اختراع غربي بالأساس لدراسة النص العربي؟ وهل عالمية الإبداع والثقافة والفن وما إليها مبرر لأن نحمل نصوصنا ثقل النظريات الوافدة عليه، والتي– أكثر من هذا – تفرض عليه فرضا، بحكم التأخر الذي نعانيه على المستوى الثقافي عموما؟[٥].

ولذلك فقد تخوف بعض النقاد العرب والإسلاميين من المناهج والنظريات النقدية الحديثة وواجهوها بالرفض لما رأوه في بعضها من مخالفة العقيدة وإفساد للذوق والأخلاق، وإحلال المذهب المادي البشري، هذا فضلاً عما في مناهجهم النقدية الحديثة تلك من تناقض وتجافٍ مع روح الأدب العربي الإسلامي ومع حقيقة العصور التي يحاولون درسها وتقويمها، حتى جاءت أحكامهم متضاربة وبعيدة عن الموضوعية تتحكم فيها المناهج الحديثة وتفرض عليها هذه النتائج.[٦]

١ نظرية الرواية والرواية العربية، د.فيصل دراج، ط١، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠١م، ص٥١.
٢ الخطيئة والتكفير ـ من البنيوية إلى التشريحية ـ، د.عبدالله الغذامي، ط٣، الكويت دار سعاد الصباح،١٩٩٣م،ص١٢.
٣ انظر:جميل حمداوي، مقال: النقد العربي ومناهجه، موقع ديوان العرب. وكذلك انظر: مناهج النقد الأدبي الحديث: رؤية إسلامية، د. وليد قصاب، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٧م، ص١١.
٤ انظر: مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، د.شكري الفيصل، ط٦،بيروت.دار العلم للملايين، ١٩٨٦م، ص ٢٢١.
٥ انظر: مقال: المناهج النقدية المعاصرة وتغريب النص النقدي، تونس: موقع بوابتي،، ومدونة الدكتور رمضان حينوني، الجزائر: المركز الجامعي لتامنغست.
٦ انظر: النقد الأدبي الحديث: أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة: رؤية إسلامية، د.سعد أبو الرضا، ص١٠٦ـ ١٠٧.

لكن يلاحظ أن هناك بعض آخر من النقاد الإسلاميين يرى أن التعامل مع هذه المناهج المادية ضرورة عصرية لفهم الواقع واعتماد خطابه من أجل أن يكون التأثير النقدي الإسلامي أشد، إضافة لما يهيئ لمزيد من إفادة الأديب المسلم بتعميق خبراته لانتقاد سيول الأدب المادي المتدفق من الغرب ولإخضاعه للمنظور الإسلامي.

لأن عدم التعامل النقدي الإسلامي مع هذا الوافد لا يمنع سيوله المتدفقة إلى سائر بلدان العالم الإسلامي وأضراره الناجمة عن ذلك في محيط الشعوب الإسلامية، تلك التي يعدّ من أبرزها طمس معالم الذاتية الإسلامية وملء الفراغ العقلي بالقيم والمبادئ المادية، وصياغة العقلية الإسلامية صياغة غربية خالصة أو على الأقل صياغة هشة غير ذات ارتباط بالأصول الإسلامية بقدر ارتباطها بالغرب وقيمه ومبادئه ونزعاته، فما دام هذا التعامل يقوم على المعيار الإسلامي ويضع هذا النتاج في أطره السليمة فكيف يخشى منه على ضياع الخصوصية الإسلامية؟[١]

إننا لا نريد من ذلك كله أن ندعو إلى عزلة نقدية، بل إن المعضلات النقدية التي تعانيها ساحتنا الأدبية لمن المحفزات التي تدفعنا إلى إعادة الاعتبار إلى النص النقدي العربي، لا أقول العودة إلى النص النقدي القديم كما هو، بل تطويره من الداخل. وهو ما من شأنه أن يؤدي إلى إنتاج مدرسة نقدية عربية تتناسب مع خصائص البيان العربي، ولا ضير في أن تستفيد من تجارب الآخر ونجاحاته، ولكن بالقدر الذي نحافظ به على ما لدينا[٢].

وقال من يناصر هذا الموقف من النقاد الإسلاميين: "إننا لا ننكر في الأدب الإسلامي المذاهب الأدبية والمناهج المختلفة وما أكثرها، بل نأخذ منها ما يوافق ثوابتنا وتصورنا الإسلامي. أما ما أثارته تلك النظريات والمناهج المتعددة فنحن نختلف كثيراً معها مثل قضية (موت المؤلف) إذ أننا نهتم بكل عناصر العمل الأدبي فكيف نلغي المؤلف وله تأثيره في العمل الأدبي بل هو صورة له؟! وكذلك كيف نطبق هذه القضية في القرآن الكريم والحديث الشريف ؟! كما نرى أن التفكيكية مثلاً تدعو إلى لانهائية المعنى وهذا خطر على الفكر والأدب. إننا لا نصادر الرأي الآخر، لكن ندعو إلى دراسته بما يوافق رؤية ديننا للإنسان والكون والحياة"[٣].

كما أن الحضارة الغربية تنجح باستمرار في كثير مما تفرزه من أنشطة في الأدب والنقد وتجديد الفكر وتأسيس رؤى وتصورات باهرة وطريفة لتحقيق حرية الإنسان من الأغلال، وترسيخ فاعليته العقلية، لكنها تتحول غالبا في كل مشروع تقدمه إلى ما يشبه الفوضى والهدم، وإضاعة الاتجاه، والتشكيك في جميع الإنجازات السابقة، ولذلك ما يلبث فكر اليوم أن يثور على فكر الأمس، وما يلبث التراث الإنساني أن يتحول إلى مذبحة، وما يلبث الشك أن يعتري جميع القيم والأفكار والفلسفات ليظل الإنسان غارقا في بحر الظلمة سابحا في المتاهة نحو مجهول لا يدري مداه! نتيجة الفكر المادي والحكم بالأهواء[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن التيار الأغلب في النقد الغربي والعربي مازال يرى أن للنص الأدبي وظيفة نفعية أو خلقية، وهو تيار قديم يمتد في عمق التاريخ، منذ أفلاطون أو أرسطو حتى اليوم ممثلا في ألأدب الإسلامي وبعض النظريات الأخرى، وفي كل الأحوال فإن أصحاب هذا التيار لم يزعم واحد منهم انه يضحي بالقيم الجمالية للنص من أجل الرسالة الخلقية أو النفعية التي يهدف إليها النص[٥].

المطلب الخامس: الدعوة لمنهج تكاملي:

ولحل تلك الإشكالات المتعددة والرؤى النقدية المتباينة ظهرت دعوات بعض النقاد العرب المعاصرين إلى ما يطلق عليه (المنهج التكاملي) الذي نرى أنه هو الأكثر جدوى للناقد الأكاديمي؛ ليغطي على بعض النقص الحاصل في الجانب التطبيقي لتلك المناهج المتعددة، فهو المنهج الذي يحاول أن يأخذ بطرف من مجموعة مناهج، بغرض التخلص من ضيق المنهج الواحد ومن صرامته، مما يفوّت جمال النص الأدبي وفهمه. فهو المنهج التعددي الذي يستفيد من كل منهج مايراه معينا له على إصدار أحكام

١ انظر رؤية د.سعد أبو الرضا: في المرجع السابق، ص١١٩، ١٢٠.
٢ انظر: مقال: المناهج النقدية المعاصرة وتغريب النص النقدي، تونس: موقع بوابتي، ومدونة الدكتور رمضان حينوني، الجزائر: المركز الجامعي لتامنغست.
٣ انظر: حوار مع د. سعد أبو الرضا، مجلة الدعوة الإسلامية، العدد الثاني والستين، ٢٠٠٣م، ص٢٤.
٤ انظر: مناهج النقد الأدبي الحديث: رؤية إسلامية، د. وليد قصاب، ص٢٣٧.
٥ انظر: النقد الأدبي الحديث بداياته وتطوراته، أ.د. حلمي محمد قاعود، ص٢٧٩.

متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع جوانبها[١]. وعلى الرغم من عدم اعتراف بعض النقاد بهذا المنهج، لاسيما المتأثرين بالتوجه النقدي الغربي، على اعتبار أن لكل منهج قواعده وأسسه الخاصة به تميزه عن غيره، فإن آخرين ينظرون إليه بوصفه ضرورة أمام اتساع آفاق النصوص الأدبية، ومحدودية النتائج التي يصل إليها كل منهج منفردا، خصوصا إذا علمنا أن المنهج في حد ذاته وسيلة للتحليل والدراسة وليس غاية يسعى الدارس إلى تحقيقها. وإذا كان تحليل النص في كل حالاته لا يستطيع الادعاء بامتلاك الحقيقة، فإن المنهج أو المناهج المتبعة فيه لا يمكن أن تؤمن الوصول إلى حقيقة النص الأدبي التي ليس بعدها جدل أو شك[٢].

بل إننا نضطر إلى (المقاربة المتعددة التخصصات) التي تهدف إلى التعامل مع النص الأدبي في ضوء مجموعة من التخصصات العلمية والمعرفية؛ ويعني هذا أنه من الصعب بمكان الحديث في هذا السياق عن منهجية خالصة ومستقلة، بل المنهجيات المستخدمة – هنا داخل العمل الأدبي– متداخلة ومتقاطعة بشكل يخدم فيه الواحد الآخر. أي: إن المقاربة المتعددة التخصصات مقاربة منهجية مفتوحة تدرس الأدب، وذلك في ضوء مجموعة من العلوم والتخصصات المعرفية المتعددة والمتشعبة، بغية الحصول التكاملي في النقد الأدبي، مدونة د. رمضان حينوني، الجزائر، المركز الجامعي لتامنغست.

على الدلالة، وبناء المعنى. وبهذا، تكون هذه المنهجية مرنة، ومنفتحة، وموسوعية، تشترك في بنائها مجموعة من المناهج والتخصصات المتعددة؛ فليس ثمة نظرة ضيقة أحادية، ولا بعد منهجي واحد في التعامل مع القضية الأدبية أو الظاهرة الثقافية فهما وتفسيرا.

هذا، وتعمل هذه المنهجية على استجلاء مختلف مستويات الدلالة النصية، وتفسيرها ضمن تعددية دلالية وتأويلية. بمعنى أن النص الأدبي يقدم معرفة إنسانية وتجربة إبداعية رمزية متشعبة ومركبة، من الصعب مواجهتها بمنهج نقدي واحد محدد نظريا وتطبيقيا، (فلابد من الاستعانة بجميع المناهج النقدية للإحاطة بالنص الأدبي من جميع جوانبه النصية) سطحا وعمقا، وذلك قصد الظفر بالدلالة التي قد تنتج عن مستويات مختلفة للمعنى، إضافة لذلك: تتعامل المقاربة المتعددة التخصصات مع النصوص الإبداعية التي تحمل في طياتها خطابات متعددة، ومستويات مختلفة من الدلالات. كما تتعامل هذه المنهجية مع النصوص الغامضة والمعقدة والمركبة والمتشعبة، مثل: النصوص الشعرية الاستعارية، والنصوص النثرية الرمزية؛ ومن هنا، فالمقاربة المتعددة التخصصات، مادامت أنها منهجية تعتمد على التعددية في الآراء، وتستند إلى فلسفة التنوع ومنطق الاختلاف في إصدار الأحكام التقويمية، فهي تتنافى مع المنهجية الأحادية النسبية التي تقصي المعارف الأخرى، وتبعد كل وجهات النظر المقابلة والمخالفة.[٣]

فنستطيع القول والحال هذه: إن المقاربة النصية في بعض أوجهها تساهم في تقريب النص لقارئه بدرجات متفاوتة رغم أنها لاتصل لدرجة الاكتفاء، ولا يخرج المنهج التكاملي عند المؤمنين به لهذه القاعدة لأنه يحاول أن يقدم رؤية متعددة الأوجه لها ما يجمعها لتصل إلى تقديم قراءة مقبولة للعمل الأدبي؛ لأن المنهج التكاملي هو الذي تشترك فيه عناصر من مناهج مختلفة قد تقل أو تكثر بحسب درجة الائتلاف بينها.

وبذا نستنبط: أن المنهج النقدي التكاملي هو أداة تستقي قوتها من ممارسة نقدية مركبة تجمع بين المعطيات الفنية والتاريخية والأبعاد النفسية والاجتماعية والعقدية، أما الشرط الوحيد في بناء هذا المنهج هو الارتكاز على رؤية نقدية شمولية واحدة، والأخذ بكل أداة منهجية صغرى تستجيب لهذه الرؤية وتوظيفها[٤].

بيد أن العديد من النقاد يشددون على ضرورة استيعاب تفاصيل المناهج المختلفة والتحكم فيها وامتلاك القدرة على الجمع فيما بينها عند تطبيق المنهج التكاملي ؛ فمن غير المنطقي أن يسمى هذا المنهج منهجا إذا لم يكتسب صفة المنهج ممثلة في آلياته النظرية

١ انظر: في النقد الأدبي، د. عبد العزيز العتيق، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م، ص٣٠٨.
٢ انظر: المنهج التكاملي في النقد الأدبي، مدونة د. رمضان حينوني، الجزائر، المركز الجامعي لتامنغست.
٣ انظر: المجلة الإلكترونية المغربية: الصفحة الرئيسية: د. جميل حمداوي، مقال: من أجل منهجية جديدة في النقد الأدبي (المقاربة المتعددة التخصصات).
٤ انظر: مجلة أصوات الشمال الثقافية، مقال: النقد التكاملي وإشكالية تطبيقه على الدراسة الأدبية، د.عامر رضا، ديسمبر ٢٠١٧م.

والتطبيقية، وهي خلاصة القراءات النقدية المنهجية المستفيدة من المناهج الأخرى، غير أنها تتمتع بخاصية التكامل والتآلف والإحاطة بجوانب النص المختلفة، فالمنهج النقدي مثل الإبداع الأدبي يرتكز بدوره على خبرات مكتسبة.[١]

أما مناخ هذا المنهج وإطاره :فيذهب بعض النقاد إلى القول بأن "المنهج التكاملي وجهين لعملة واحدة، وجه التعددية، ووجه الحوارية، وهذان الوجهان متداخلان متشابكان، فأنت لا يمكن أن تعيش التعددية إلا إذا توسلت بالحوار، ولا يمكن أن يتم لك الحوار إلا إذا كان ثمة تعددية، وما التكاملية إلا لقاء وتفاعل بين اتجاهات شتى، كلّ منها يحرث في حقله، وتريد أن تبحث عن نواظم عامة مشتركة"[٢].

ولعل أفضل تعليل لتطبيق المنهج التكاملي هو ظهور محاولات نقدية جادة تحاول الاستفادة من نظريات النقد العالمية وإسقاط روحيتها على الأجساد النصية العربية، ولكن معظم هذه المحاولات مازالت تفتقر إلى المنهج المتكامل، مما أوصل إلى حالة تخبط موسومة بغياب حركة البحث العلمي المؤسسة على أصول ذاتية، كونها محاولات تفتقر إلى أصل يؤصل عليه من جهة، وكونها قاصرة عن مواكبة تيارات النقد العالمية[٣]. وعلى الرغم من كثرة الجهود المبذولة من جانب النقاد في مجال قراءة النّص الإبداعي، فإنّه لا يزال لغزاً محيراً لأي باحث يريد أن يواجه هذا العالم المكتنز بالفتنة والغرابة والتعددية المتجددة على الدوام. لأن عملية تلقّي النص عملية معقدة تخضع لملابسات كثيرة، ولكن النص وحده وظروف تشكيله هما اللذان يوجهان عملية تلقي النص، ويجعلان لها وجوها كثيرة ومتنوعة، إلا أنها وجوه مشروعة[٤].

المطلب السادس: موقفنا الفكري والنقدي من هذه المناهج والنظريات:ـ

بيد أننا في نهاية هذا المطاف لابد أن نطرح سؤالا أساسيا حول موقفنا من كل هذه المناهج والنظريات؟ فهل ينبغي التمييز والفصل بين ما هو عربي وما هو أجنبي؟ وهل خضعت المناهج النقدية في الثقافة العربية لنفس المحددات والمقومات وأشكال التطور التي خضعت لها في الثقافة الغربية؟ وما هي العلاقة بين الدائرتين؟ هذا تساؤل في غاية الأهمية، وينبغي أن نجيب عليه قبل أن نؤصّل المناهج النقدية لأبحاثنا الأدبية واللغوية المعاصرة؟ وذلك من خلال غربلة ما يصل إلينا في ميزان ثوابتنا وفكرنا وهويتنا.

لأن منهج النقد الإسلامي، الذي دعا إليه العديد من النقاد الإسلاميين، هو (منهج تكاملي)، يرفض الأُحادية، وينبِذ الانحياز إلى جانب من جوانب العمل الأدبي على حساب الجوانب الأخرى، كما هو شأن المناهج المعاصرة المطبَّقة اليوم في الدرس الأدبي، وفي هذا ما فيه من إضعاف للعمل الأدبي؛ لأنه لا يقف إلا عند وجه واحد من وجوه تميُّزه، إنه منهج اصطفاء وتخيُّر، يأخذ من جميع ما بين يديه من معطيات نقدية – قديمة وحديثة، عربية وغربية؛ ولكي يحقق هذا المنهجُ النقدي الإسلامي المنشود غايتَه لا بد من أن يكون الناقد واسع الثقافة، عميق الاطّلاع، رحب الأُفق، مرهف الذوق، يُحسن الاختيار والانتقاء، وأن يكون – مثلما هو منضبط من الناحية الفكرية العقدية – منضبطًا كذلك من الناحية الفنية، فلا يضيق صدرًا بكل جديد، ولا ينفِر من كل حديث مبتدع، ما دام لا يصادم عقيدة أو خُلقًا، وأن يكون أكثر تسامحًا مع الأشكال الفنية الجديدة[٥].

لاسيّما أن الواقع يشهد أن كثيرًا من النقّاد العرب والغربيين أنفسهم لم يستطع أن يخلص لمنهج واحد لا يعدُوه، وأنهم كانوا يزاوجون في ممارساتهم النقدية بين أكثرَ من منهج نقدي واحد؛ فممارسة التكامل النقدي، أو شبهه، متحقِّق عمليًّا عند أكثر من ناقد من النقاد الكبار[٦].

---

١ انظر على سبيل المثال: النقد الأدبي الحديث، مقاييسه واتجاهاته وقضاياه ومذاهبه، د.حسن درويش، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٣٤ـ ١٤٩ حول الأدب التكاملي.

٢ انظر: مقال في النقد التكاملي، نعيم اليافي، صحيفة الأسبوع الأدبي، اتحاد العرب، دمشق، العدد٣٩، أيلول١٩٩٢م، ص٣.

٣ انظر:مقال المنهج التكاملي بين الرفض والقبول، أ / سعدلي سليم، جامعة بجاية، الجزائر، ص٢.

٤ انظر مقال: تلقي النص الأدبي، د. وليد قصاب، شبكة الألوكة الثقافية، في ٢٠٠٨/٥/٢٨م.

٥ انظر: مقال المنهج التكاملي، د. وليد قصاب، شبكة الألوكة، موقع الدكتور وليد قصاب.

٦ انظر: تحليل الخطاب الأدبي في ضوء المناهج النقدية الحداثية، د. محمد عزام، دمشق، نشر اتحاد كتاب العرب، ٢٠٠٣م، ص٨.

وإذ كنا نقول: إن منهج النقد الإسلامي المنشود يقوم على التكامل، وينظر إلى عناصر العمل الأدبي جميعها، فليس معنى هذا أن الناقد ملزَمٌ في كل درس أدبي تطبيقي لنص من النصوص أن يدرسه من جميع جوانبه؛ فقد يتوقف الناقد عند جانب واحد من جوانب العمل؛ قد يتوقف عند قِيَمه النفسية، أو الاجتماعية، أو التاريخية، أو الفكرية، وقد يتوقف عند ظواهر فنية كالألفاظ، أو الصور، أو التناص، أو الموسيقى، أو غير هذا وذاك، ولكنه لا يغفُل عن أن هذا النص الذي يدرسه إنما صار أدبًا جادا لاستيفائه عناصر الشكل الفني المتميز أولاً، ولتعبيره ثانيًا عن تصور فكري إسلامي، وأنه لا يشفع

لأحدهما غيابُ الآخر أو فقرُه، كما تفعل بعض المناهج النقدية الأحادية التي يصوِّر بعضُها الأدبَ على أنه تشكيل لغوي باهر منزاح عن المألوف، وأن حَسْبَ الناقد أن يكشف عن هذا التميز اللغوي بصرف النظر عما ينطوي عليه من القيم والأفكار.

إن النقد العربي والإسلامي يستطيع أن يتناول من النص أي عنصر من عناصره، لأنه من الصعب – في أحايين غير قليلة – الإحاطةُ بجميع عناصره، بحيث تصعُبُ دراسته فنيًّا ومضمونيًّا، ويصعب تحليله وتفسيره وتقويمه، كما يصعب الكشف عن جميع جوانبه الشعورية والاجتماعية، وربطه بشخصية مؤلِّفه، واعتماده على ما سبق من الموروث الشعبي، ووضع النص في إطاره بين النصوص المتشابهة، وما شاكل ذلك من جوانب كثيرة تعز على الحصر.

والمنهج المتكامل لا يطالب به جميعه، وهو – مع محافظته على التكامل – يستطيع أن يدرس جانبًا من جوانب النص، وأن يتعمق فيه، ولكن بشرط ألا يشعرنا أنه لا يعبأ بالجوانب الأخرى، أو أنها لا أهميه لها، أو أنها لا تدخل في الحُكم العام على النص وتقويمه، أو أنها منبتَّة عنه؛ لذا فإن تطبيق المنهج النقدي المتكامل لا يخلو من الصعوبة، لكنه الأجدى نقديا لفهم النص الأدبي[١].

حتى أن من النقاد الغربيين الحياديين يكادون يسيرون على مثل هذا الرأي الحر، حيث سعى بعضهم إلى القول: بأنّ التأويلات المتعلقة بالتأويلات، أكثر من التأويلات المتعلقة بالأشياء ذاتها، بل توجد كتب عن الكتب أكثر مما توجد عن أي موضوع آخر، ولسنا نقوم ـ معاشر الكتّاب ـ سوى بمحاكاة ضد بعضنا البعض، ولا يمكن أن ننكر أن ضربا من الإرهاب المنهجي والإيديولوجي قد أثر في نقد وتدريس الأدب وفي الإنتاج الأدبي ذاته منذ عقود من السنين، حتى صار هذا الانحراف القائم على اعتبار كلام الناقد أهم من نتاج كاتب الأدب! ففي الواقع أن الخطاب النقدي يتمثل غالبا في إنهاك النص الذي يكون موضوعا له باسم تناسق مختلف أو باسم يقين منهجي! فمن الخطأ إذن أن نرى مثقفا يسلخ نصا أو عملا أدبيا باسم النقد، حتى صار النقد غاية بحد ذاته وليس وسيلة لصنع الإبداع![٢].

إذن نخلص من كل ما سبق إلى أن المناهج النقدية المتعددة المتنوعة تؤثر وتتأثر ببعضها البعض، وهي أدوات يستعان بها لتحليل النصوص الإبداعية من شعرية ونثرية، لكي يصبح المنهج وسيلة لتنظيم الأهداف التي يسعى لها النص، وليست غاية في حد ذاتها، لذا يجب توخي الحذر من فرض أي منهج على النص سواء كان هذا المنهج حديثا أو قديما، لأن المنهج بطريقة لاشعورية سيسيطر على فكر الناقد ومن ثمّ على النص.

لاسيّما أن الناقد يرى الفجوة الكبيرة بين تصور وآخر في مفاهيم رواد تلك النظريات والمناهج، مثل الاختلاف الذي تفجر بعد أن انطلق (شارل بالي) بنظريته عن الأسلوب والأسلوبية، فقد كان يتصوره خاصا بالاستخدام العادي للغة، ثم جاء آخرون فرأوا أن الأسلوب خاصا بالاستخدام الأدبي، ثم اتسع الخلاف إلى مذاهب يتولد بعضها من بعض؛ فالتعريفات المتعددة للأسلوب على سبيل المثال توضح لنا حجم التعارض، مثل أنه: نظام، خطاب، الرجل، الشكل، الأداة، الأثر، اللغة، تعبير عن شخصية صاحبه، ليس تعبيرا عن شخصية صاحبه، طريقة، موقف، جزء من القراءة، ليس جزءا من القراءة بل من الكتابة، قراءة النص، اختيار، حديث لغوي، حدث فكري، ومن كل هذه التعريفات تتولد اتجاهات متعارضة ومتباينة[٣].

---

١ انظر: مقال المنهج التكاملي، د. وليد قصاب، شبكة الألوكة الثقافية، موقع الدكتور وليد قصاب.

٢ انظر، مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي، ترجمة د.صادق قسومة،: دانيال بارجاس، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، ٢٠٠٨م، ص١١، ١٢.

٣ انظر: الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام: د.عدنان النحوي، الرياض، المملكة العربية السعودية، دار النحوي للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٩ه، ص١٥٧.

خاتمة البحث:

النتائج والتوصيات

لقد توصلت هذه الدراسة إلى نتائج مهمة لابدّ أن يراعيها الباحث وناقد النص الأدبي على وجه الخصوص؛ لذا يعنى هذا البحث بذكر التوصيات الآتية:

١. أنه ليس بمستطاع منهج نقدي واحد أن يستوعب الظاهرة الأدبية كلّها شعرا أو نثرا، سواء أكان ذلك المنهج النقدي قائما على معطيات الدراسات اللغوية، أم على غيرها من المعطيات الأخرى التي تبحث في أعماق الظاهرة الأدبية.

٢. إن كثيرا من المناهج النقدية المعاصرة وقعت في العجز النقدي الواضح للظاهرة الأدبية، وهذا إما لطبيعة النص الخاصة، أو لعدم قدرة المنهج على تفكيك شفرات النص، وعدم مناسبة المنهج النقدي له أثناء عملية التحليل، فليست إذن كل منهجية قدوة يجب أن يحتذي بها كل ناقد !

٣. رغم تباين المناهج النقدية المعاصرة تقنيا، إلاّ أنّها تتقاطع في العديد من القضايا التي أثارت ثغرات نقدية يصعب علينا تجاهلها رغم اختلاف العصور النقدية، واختلاف أدوات كل ناقد، وتطور الآفاق المعرفية واللّغوية للمبدع، والناقد خصوصا؛ لهذا كانت النصوص المعروضة على الساحة النقدية تتلقى أنواعا عديدة من أساليب التشريح، والتعديل النقدي الذي إما أن يضيّق من حلقة نقدها أو يوسّعها، أو حتى يخرج بصاحب العمل الإبداعي عن المألوف من الأعمال، وهكذا تبقى عملية النقد الأصيل في أخذ ورد بين الناقد والمبدع حتى تخرج على الوجه المبتغى.

٤. نلاحظ على وجه العموم أنّ المناهج النقدية المتنوعة السياقية منها أو النسقية كلّها متممة لبعضها البعض، في حين تبقى الظاهرة الأدبية صعبة المنال تتطلب مفهوما عاليا في الأصول النقدية، وبناء معرفيا مركبا يسمح للناقد الجاد بتتبع كل حواشي النص الأدبي، وفي كل تلك المناهج حركة تتمركز حول جوهر العمل الإبداعي، تتجه نحو الاقتراب من بنية النص الأدبي بكل الوسائل الملائمة المتعددة.

٥. من الملاحظ بوضوح وقوع نقدنا العربي تحت هيمنة المناهج النقدية الغربية، وكفّ حركته عن الإبداع فيما هو أصيل ومتفرّد ومنطلق من واقع همومنا الثقافية الخاصة، وطبيعة نصوصنا الإبداعية، لذا يتوجب على الباحثين والباحثات إنهاء الغربة المنهجية التي يعيشها نقدنا العربي المعاصر، أو على الأقل تعريبها تعريبا حقيقيا، وتطويعها للنصوص العربية.

٦. إن بعض تلك المناهج النقدية كالبنيوية والتفكيكية تنظر نظرة مادية بحتة إلى الواقع سواء النص أو ما يتصل به، وفي ذلك جرأة وتجاوز للحدود النقدية في تحليل النصوص المقدسة، وما فوق العلم البشري من غيبيات دينية، إضافة لعدم اهتمامها بالقيم الأخلاقية، بالرغم من أن الإيمان بهذه الأساسيات، يسهم في تحقيق التفاعل الإيجابي المقنع بين النص وناقده.

كما أن هذه النظريات الغربية النقدية التي سيطرت على رؤية بعض النقاد العرب المعاصرين قد نشأت في بيئة غير البيئة العربية، وأعراف غير أعرافها، لذا فإن الأخذ بها أخذا مطلقا يعدّ تغريبا واضحا للفكر الإسلامي، وتشويها لأصالتنا الثقافية، فعلى سبيل المثال لا الحصر: فكرة موت المؤلف التي تؤكد على خطورة الانسياق غير المتأني لبعض النظريات الغربية ؛ لأن علوم الفصحى في أساسها لم تنشأ إلا لخدمة نصوص القرآن الكريم الذي هو الكلام البليغ المعجز للخالق، وهو حلقة الوصل بينه وبين خلقه، مما يتناقض مع هذه الفكرة.

٧. إن المناهج النسقية الداخلية التي تعزل النص عزلا تاما عن كل ما يحيط به من مؤثرات تاريخية أو نفسية أو اجتماعية؛ يعد نقصا واضحا في المنهج التحليلي، لأنه يحرمه من عناصر قد تسهم في إضاءته والكشف عن مكنوناته الخفية، لذا ينبغي على الناقد المتخصص الأخذ بالمنهجين معا المساقي والنسقي، بما يخدم العمل الإبداعي.

٨. إنّ المناهج النقدية المعاصرة على اختلاف منابعها سعت إلى التشبه بالعلم واستخدام أدواته والاستفادة من معادلاته وأحكامه وأرقامه، على حساب التأثيرات الذوقية والرؤية الذاتية الخاصة؛ لذا فإن تركيز العديد من المناهج الغربية المعاصرة على هذه

الدراسات اللغوية واللسانية في تحليل الأدب ونقده؛ يشغل القارئ والناقد في فك طلاسم الشفرة النقدية، التي تضفي الغموض على النص الإبداعي وتحجب الكثير من جمالياته الفنية ومعانيه المستهدفة.

٩. ختاما: نؤكد على أنه ينبغي على الباحث الأكاديمي في مجال النقد: دراسة جميع المناهج البحثية والنظريات النقدية بعمق ووعي، ثم يتوخّى حسن الاختيار لما يتلاءم مع قدراته وميوله، ومع موضوعه ونصوصه، سواء أكان اعتماده على منهج واحد أو منهج تكاملي، ثم عليه أن يشير لذلك في مقدمة دراسته مبررا ذلك الاختيار وموضحا إياه.

كما يجب على الناقد أن يتحلى بسلامة الذوق، وجمال الأداء النقدي، وأصالته، (وحياديته)، عن طريق استنباط وتفحص العلاقات الخفية المتشابكة التي تحكم بنية النص الأدبي، وذلك من خلال اهتمام الباحث بعملية التدريب والتمرس على النقد التي يجب أن يركز عليها صاحب العمل النقدي كثيرا.

المصادر والمراجع

أولا: الكتب:.

١. الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، د.عدنان علي رضا النحوي، الرياض: المملكة العربية السعودية، دار النحوي للنشر والتوزيع، ط ا، ١٤١٩هـ.

٢. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، لوسيان قولدمان، ط١، ترجمة أحمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، د.ت.

٣. إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر – مقاربة حوارية في الأصول ٢ المعرفية_، عبد الغني بارة: الهيئة المصرية للكتاب، د.ت، ٢٠٠٥م.

٤. تحليل الخطاب الأدبي في ضوء المناهج النقدية، الحديثة، دراسة في نقد النقد، محمد عزام، نشر اتحاد كتاب العرب، دمشق٢٠٠٣م.

٥. تحليل النص الأدبي: ثلاثة مداخل نقدية، د. ابراهيم أحمد ملحم، الأردن، إربد، عالم الكتب، ط١، ٢٠١٦م.

٦. الخطيئة والتكفير . من البنيوية إلى التشريحية . د. عبد الله الغذامي، الكويت، دار سعاد الصباح،ط٣، ١٩٩٣م.

٧. فضاء المتخيّل . مقاربات في الرواية، حسين خمري، الجزائر: منشورات الاختلاف، د.ط، ٢٠٠٢م.

٨. في النقد الأدبي، د. عبدالعزيز عتيق، بيروت: دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٢م/ ١٣٩١هـ.

٩. في نظرية النقد، د. عبد الملك مرتاض، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م.

١٠. مقدمة في نظرية الأدب، عبد المنعم تليمه، لبنان، دار العودة، ط٢، ١٩٧٩م.

١١. مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي، مجموعة مؤلفين إشراف: دانيال بارجاس، ترجمة الصادق قسومة، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، ٢٠٠٨م.

١٢. المصطلح النقدي، د. عبد السلام المسدي، مؤسسة بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٤م

١٣. من إشكاليات النقد العربي المعاصر، د. شكري عزيز، بيروت: المؤسسة العربية للدراسة والنشر، ط١، ١٩٩٧م.

١٤. مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، د. شكري الفيصل، بيروت. دار العلم للملايين، ط٦، ١٩٨٦م.

١٥. مناهج النقد الأدبي الحديث: رؤية إسلامية، وليد قصاب، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٩م/١٤٣٠هـ.

١٦. مناهج النقد الأدبي والدراسات الأدبية، عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٥م

. نظرية الرواية والرواية العربية، فيصل دراج، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٠م.

١٧. نظرية النقد الأدبي الحديث، د. يوسف نور عوض أستاذ بجامعة اكسفورد بإنجلترا، ط١، القاهرة، دار الأمين، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

١٨. النقد الأدبي الحديث: أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة: رؤية إسلامية، د. سعد أبو الرضا، الرياض، عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤ م.

١٩. النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته، د. حلمي محمد القاعود، الرياض: العليا، دار النشر الدولي، ط١، ٢٠٠٦م.

٢٠. النقد الأدبي الحديث، مقاييسه واتجاهاته وقضاياه ومذاهبه، د. حسن درويش، ط٢مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، م١٩٩١م.

ثانيا: المواقع الإلكترونية:.

٢١. شبكة الألوكة الثقافية، صفحة الدكتور وليد قصاب.

٢٢. مدونة د. رمضان حينوني، "لنامنغست" المركز الجامعي، الجزائر.

٢٣.مدونة الناقد د. جميل حمداوي.

٢٤.. موقع الأستاذ سعدلي سليم، جامعة بجاية. ٢٥.موقع بوابتي: صفحة الناقد رمضان حينوني.

٢٦ . موقع جامعة ديالي، كلية التربية الأساسية: صفحة الناقد فتحي خشايمه.

ثالثا: المجلات والصحف:.

٢٧ . صحيفة (الأسبوع الأدبي)، اتحاد العرب.

٢٨. . صحيفة (اليوم) السعودية.

٢٩. مجلة (أصوات الشمال) الثقافية.

٣٠ . المجلة الإلكترونية المغربية.

٣١. مجلة (الدعوة) السعودية.